تمتّع
الحرية خيرٌ يُمكّننا من التمتّع بسائر الخيرات.
مونتسكيو

عندما يشوه الخيال العلمي التاريخ لدوافع سياسية:

كولين دوسيلفا وروايته الحمراء: حلبة مغتالين

كتب: د. عبد النبي اصطيف

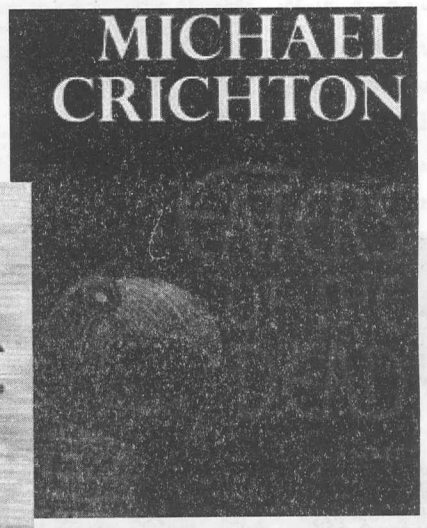

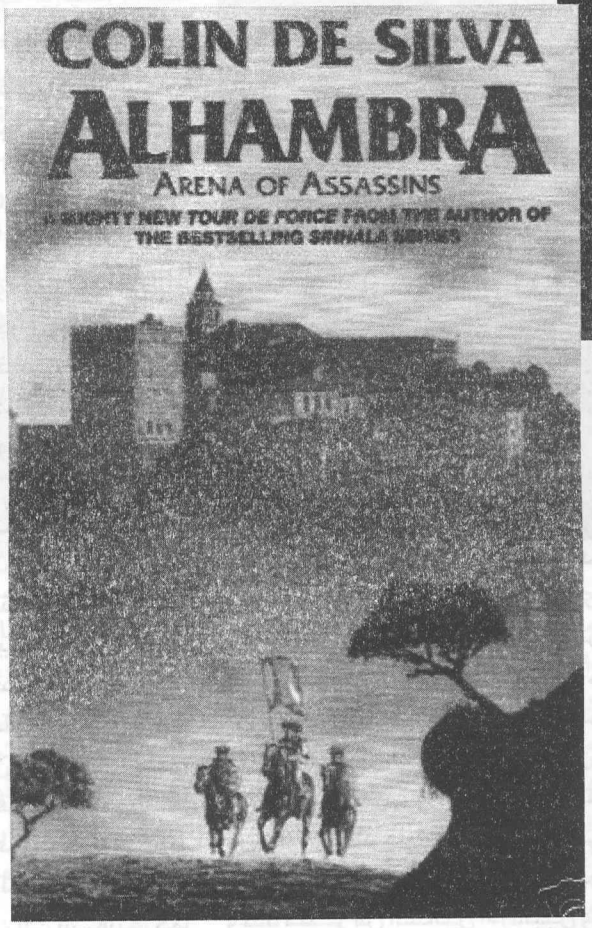

ينهض التاريخ/الماضي، عندما يتأمله المرء من لحظة الواقع/الحاضر، جبلاً يُلقي بظله على الحاضر، ويتحول بالتدريج إلى مؤثّر في، بل مُحدِّد أحياناً لـ، مختلف جوانب واقع هذا المرء. وعلى الرغم من أن الجبل قد يستعصي على أي جهد إنساني أو فوق-إنساني Superhuman يستهدف زحزحته أو التحرر من دائرة ظله أو سحره الآسر، فإن الفن قادر على التحايل على قوة هذا الجبل وسلطانه بخلق عالَم بديل للواقع لا يدع غير فسحة محدودة له، ومن ثَمَّ لتأثيره، في هذا الواقع. وهكذا رأينا الخيال الإنساني الذي لا يعرف الحدود يروّض التاريخ، بإعادة تفسيره حيناً، أو إعادة كتابته حيناً آخر، أو بتطوير أحداثه والمضي بها إلى نهايات تختلف عن النهايات التي دوّنتها الوثائق والدواوين والكتب. وكان من الطبيعي أن يؤدي الخيال العلمي Science Fiction دوراً كبيراً في عملية الترويض التي أُخضع التاريخ لها من جانب الفنان، لأن هذا الدور يستند، فيما يبدو، إلى قاعدة راسخةٍ من الموضوعية والعقلانية والمعطيات العلمية التي تُدخِل المتلقي/القارئ في أبواب الرجاء والأمل والطموح الإنساني أكثر مما تدخله في باب الواقع المكبّل للقدرات الإنسانية.

غير أن لحوافز الفنان دوراً كبيراً في تحديد طبيعة عملية الترويض هذه ووظيفتها، ومن ثم إسهامها في إنشاء العمل الفني، وطيف هذه الحوافز واسع جداً، ومتنوع غاية التنوع. وربما كان من أبرز ما يمثله في الرواية الأنكلو-أمريكية مثالان صارخان:

الأول منهما هو مثال مايكل كريتون Michael Crichton الروائي الأمريكي المشهور الذي اقتحم عالم الماضي/التاريخ المدوّن من جانب ابن فضلان في رحلته الموسومة بـ"رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة" والتي تعود إلى عام 921م، وطوّر وقائعه وفق رؤيته للعالم التي تستند إلى التطلعات الإنسانية المشروعة إلى إقامة عالَم من التعاون والتكافل الإنساني، فمضى في روايته "أكلة الموتى" Eaters of the Dead إلى بلاد الشمال ووصف لنا مغامراته التي قامت على شراكة إنسانية بين العربي والأوربي محفوزة بأهداف سامية هي إحقاق الحق ونشر السلام والعدل.

والثاني منهما هو مثال روائي الإمبراطورية البريطانية كولين دوسيلفا Colin De Silva الذي اقتحم بدوره عالم الماضي/التاريخ للأندلس العربية-الإسلامية، وعالم درّة حضارتها الحمراء، ولكنه بدل أن يطوره بخياله العلمي على نحو يخدم العلاقات الإنسانية بين الأمم والشعوب، ولاسيما أوربة والعالم الإسلامي، فإنه سعى إلى تأجيج نار العداوة والبغضاء بينهما من خلال تشويه قصة بناء قصر الحمراء ومحاباة الدوائر الصهيونية التي تشوّه صورة العربي من جهة، وتجمّل صورة اليهودي "العبقري" من جهة أخرى، مسوّغة بذلك على نحو غير مباشر جرائم الصهيونية التي ترتكب يومياً بحق الشعب الفلسطيني خاصة والعرب عامة.

يعمد الروائي كولين دوسيلفا، المحفوز بكراهية بغيضة للعرب والمسلمين، والمسكون برغبة شديدة في محاباة الصهاينة، في رواية "الحمراء: حلبة مغتالين»:Alhambra Arena of Assassins ، إلى تشويه التاريخ الأندلسي وترويضه لخدمة أغراضه، مقدّماً قصة ملفقة للوزير اليهودي يوسف بن نغر الله، الوزير الأكبر لملك إسبانية المسلمة عبد الله المعروف بلقب الخليفة، تصوّره على أنه ضحية للغدر والخيانة، عندما يُكافأ على بنائه قصرَ الحمراء، درّةَ الحضارة الإسلامية في الأندلس، بالقتل بيد سيده الخليفة. وقصة كهذه هي بلا ريب أبعد ما يكون عن الحقيقة التاريخية لتلك الحقبة المتألقة في التاريخ الإنساني التي اجتمع تحت قبتها أتباع جميع الديانات السماوية، ونعموا بعيش مشترك سادته قيم التسامح واحترام الآخر، وهيمنت عليه مناخات يسرت إقامة شراكة حضارية معه، قدمت للإنسانية منجزات رائعة لا تزال البشرية تنعم بها حتى يومنا هذا. ويكفي للدلالة على غنى هذه التجربة السامية في العيش المشترك بين أتباع الديانات الإبراهيمية أنها يسرت عصراً ذهبياً للثقافة العبرية لا يزال أتباعها يحنون إليه.

كتب: محمد حمدان

الصين.. بالعربية الفصحى!

بعد رحلة طويلة شاقة /وشائقة معاً، تخللها انتظار ساعات في مطار الدوحة قتل الملل فيها وجودنا معاً نحن الأربعة - أعضاء وفد اتحاد الكتاب العرب - إلى الصين الشعبية الصديقة، وصلنا إلى مطار بكين الضخم جداً، ويبدو أن كلمة (العظمة) ترافق الزائر في كل محطات تجواله في الصين. عبر بنا قطار الأنفاق في المطار نفسه ما يزيد على الكيلومتر إلى حيث الأمتعة. كان في انتظارنا بعد ذلك صبيتان. موظفة العلاقات العامة في اتحاد كتاب الصين ومعها أخرى سرعان ما عرفنا أنها مترجمة الوفد وقد رافقتانا طيلة الرحلة.

جاءتنا تحية موظفة العلاقات العامة بالإنكليزية ثم جاءنا السلام والترحاب بعربية فصيحة: أهلاً وسهلاً. أشارت إلى (الموظفة) قائلة إن اسمها (يان) وأضافت: أما أنا - مترجمة الوفد - فاسمي رزان.

- رزان؟

- نعم.. رزان

كان واقع الاسم طيباً جداً، ومستغرباً جداً.

- هل أبوك..؟ هل أمك..؟ هل..؟

- كلا. لقد أعطاني هذا الاسم أستاذي في كلية اللغة العربية.

يتدافع في مثل هذه اللحظات في اللقاءات كلها سيل من الأسئلة، بعضها يضيع في الزحام، وبعضها ينسى نفسه، وبعضها تكتفي بنصف إجابة أو بشبهة إجابة عنه فللآخرين حق السؤال كذلك. وقد يستغرقك ما تراه يميناً وشمالاً عن الأسئلة وإجاباتها، فثمة إجابات بصرية يقوم الإدراك بعد ذلك بتركيب أسئلتها وتهيئة عناوينها ومناخاتها.

بعد يومين من التسكع المدهش في القصر الإمبراطوري وسور الصين (العظيم) وأسواق بكين بحريرها وساحات لياليها التي لا تعرف إلا الأحمر، كان لنا في إطار التبادل الثقافي لقاء (رسمي) مع أساتذة كلية اللغة العربية في جامعة الدراسات الأجنبية ببكين ولفيف من طلاب الدراسات العليا فيها.

عند باب الكلية كان ينتظرنا ثلاثة قام أحدهم بالتعريف: الدكتور عمار عميد الكلية، وأنا - وأشار إلى نفسه - الدكتور بسام وكيل الكلية، وتلك الدكتورة ليلى أستاذة في الكلية. الوجوه صينية لا تخطئها العين ولذا كانت حكاية الأسماء مدعاة للتساؤل، على أن حسن المجاملة وحلاوة الترحيب والابتسامات الرضية حالت بيننا وبين السؤال.

القاعة كبيرة والطاولة مستطيلة الشكل، تركوا لنا جانباً منها وجلسوا قبالتنا مع طلبتهم (والأصح طالباتهم/انطلاقاً من الأغلبية الغالبة) الذين تحلقوا حولهم وخلفهم.

سنة 1958 أنشئت كلية اللغة العربية وقد جرى العرف منذ ذلك التاريخ أن يختار الدارس أو الدراسة اسماً عربياً رمزياً يعرف به، وربما اختار له الاسم أستاذه - وهو الشائع أكثر- هكذا تعرفنا إلى نرجس ورشيدة وليلى وخليل وخديجة وياسمين.. إلخ، ثم وجه المتحدث كلامه إلي قائلاً: سفير الصين الشعبية في سورية في هذه الآونة اسمه حمدان وهو من خريجي كليتنا (تحية لقريبنا ريثما يقدر لنا اللقاء والدعوة قائمة دائماً لزيارة أقربائه). من هنا - إذاً - جاء اسم رزان واسم عماد مترجم وفد الحرفيين السوريين الذي التقيناه مصادفة على أدراج سور الصين أمس الأول.

في اليوم التالي فاجأتنا المترجمة رزان (بالبلوزه) التي تلبسها، فقد كتب على منطقة الصدر (جامعة الدراسات الأجنبية ببكين /كلية اللغة العربية) وعلى الظهر برزت خريطة الوطن العربي كله كما يرسمها العرب القوميون من المنامة إلى الرباط، ومن دمشق إلى مقديشو، ولم تهمل شيئاً كما يفعلون عندنا في النشرة الجوية.

كان بودي أن أقول لرزان شيئاً ضاق الوقت هناك عن قوله. إن فئة من الناس عندنا تهرب من الأسماء العربية خصوصاً بالنسبة للإناث، فقد وقر في الذهن عند هؤلاء أن الأسماء الأجنبية (أرق وأرقى)، كما أن جلّ بناتنا لا يتجاسرن على ارتداء ثياب كتب عليها بالعربية، والحق ليس عليهن أبداً بل على جو عام أفرز ما أفرز - والأمر يحتاج إلى قراءة متأنية عسى أن يكون ذلك قريباً -، أما الخريطة التي تحملينها على ظهرك يا عزيزتي وأنت التي مضى ربيعها العشرون أمس، فهي خريطة الهموم والقلب المجروح وأشواك الانكسارات، على أنها أيضاً خريطة الأمل والعزم والآتي.